

الاحتلال المغولي لروسيا ١٢٣٧-١٤٨٠م

م.م.نادية جاسم كاظم الشمري
جامعة بابل/مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية

المقدمة

اتفق بعض المؤرخون ان دولة روسيا متخلفة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً قياساً بالدول الأوروبية الأكثر تطوراً والسبب الرئيس هو فقدانها الاستقلال الوطني ووقوعها تحت الحكم المغولي طوال قرنين ونصف تقريباً للمدة من (١٢٣٧-١٤٨٠م)، وكان هدف المغول من دخول روسيا الحصول على مكاسب سياسية واقتصادية، وقبل الدخول في تفاصيل هذا الموضوع لا بد من معرفة الوضع العام في روسيا قبل دخول المغول إليها. الوضع العام في روسيا قبل الاحتلال المغولي كانت روسيا الجنوبية في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي خاضعة لقبائل "القومان Cumans والبلغار Bulgar والخزر Khazars والبتريناك Patzinaks"، اما باقي روسيا الأوروبية فكان مقسماً إلى أربع وستين إمارة أهمها "كييف Kiev، ونفغورود Novgorod، وريازان Riazan، وبرياسلاف Pereyaslav"، وكانت هذه الإمارات تعترف بسيادة كييف عليها^(١). وقبل أن يموت ياروسلاف^(٢) Yaroslav، وزع هذه الامارات على أولاده عام ١٠٥٤م، ولكن سرعان ما نشبت الخلافات بينهم، مما أدى إلى انقسام هذه الإمارات إلى عدد من الإقطاعيات، وهكذا نشأ النظام الإقطاعي في روسيا، ونتيجة للفوضى التي واكبته، فقد اضمحلت مملكة كييف وسقطت، ونشبت بين عامي ١٠٥٤م، ١٢٢٤م، ثلاث وثمانون حرباً أهلية في روسيا وأُغِيرَ عليها ستة وأربعون مرة، وشنت دول روسية ستة عشر حرباً على شعوب غير روسية، وتنازع "٢٩٣" اميراً عرش أربع وستين إمارة، ونتيجة لهذه الفوضى وإهمال الشعب الروسي الذي أصابه الفقر، فقد قامت اضطرابات وثورات في كييف وغيرها ضد الاستغلال والبطالة وهاجمت الجماهير الروسية بيوت المرابين ونهبته، واستنجد الروس بـ "فلاديمير مونوماخ Vladimir Monomakh" (٣) وقد حاول إصلاح أمور الناس الفقراء وذلك بتخفيض سعر الفائدة على القروض وقيد سلطة أرباب العمل، ولكن اصلاحاته لم ترض الأغنياء واعتبروها بمثابة مصادرة لأموالهم ونقم عليها الفقراء لأنها لم تحدث تبديلاً جوهرياً في مستوى معيشتهم، وهكذا فشل مونوماخ في اصلاحاته وعاد النزاع بين الامراء، واحتدم الصراع بين الشعب والامراء الروس وعمت الفوضى في الإمارات الروسية^(٤). وثارَت العداوة بين الامارات عندما حاولت كل امانة ان تستولي على اراضي الامارات الأخرى وأدت الحروب المتواصلة إلى تدهور الأوضاع المالية للامارات وساد الضعف في البلاد^(٥). الحملات العسكرية على المدن الروسية (١٢٣٧-١٢٤٠م) انتهت بالمغول Mongols^(٦) هذه الأوضاع السيئة التي تم ذكرها مسبقاً، واقتحمت جيوشهم عام ١٢٣٧م التي بلغت تعدادها ثلاثمائة ألف فارس من الخيالة وكانت جيدة التسليح والتنظيم بقيادة باتو Bata^(٧) الحدود الشرقية للأراضي الروسية^(٨) بعد ان استولوا على مدن اسيا الوسطى والقفقاس المزدهرة ودمروها، وكانت امانة ريزان هي اول من تلقى ضرباتهم، وقد دافع عنها جميع المواطنين بشجاعة وتم حرقها وأخذ في الأسر من بقى حياً، وبعد ان استولى المغول على ريزان في الحادي عشر من كانون الاول ١٢٣٧م، ثم سقطت كولومنا Kolomna، بعد بضعة ايام، وفي الاول من كانون الثاني ١٢٣٨م حاصروا مدينة فلاديمير، وقد ابدى الفلاديميريون شجاعة فائقة، ولكنها لم تصمد للقتال اكثر من ستة ايام واقترن سقوطها في الثامن من شباط ١٢٣٨م بمذبحة جماعية للسكان^(٩). واستمر المغول في السيطرة على جميع المدن الروسية واحرقوا في طريقهم وموسكو Moscow، وروستوف Rostov، وسوزدال Suzdal، وياروسلاف Yaroslav، وتفير Tver وغيرها، وفي الرابع من اذار ١٢٣٨ تحركت القوات المغولية الى الشمال الغربي الى مدينة نوفغورود الغنية بالموارد الاقتصادية، ولكنها لم تصل إليها، فالمعارك لم تنقطع تقريباً مع القوات الروسية، الامر الذي أدى الى ضعف المغول وقل عدد قواتهم وأصبحت الغابات والمستنقعات والبحيرات حول هذه المدينة مستحيلة العبور امام فرسان المغول، وتحولوا إلى الجنوب في مناطق البراري لكي يكملوا قواتهم ويدعموها، وأدركوا ان الطريق اليه ليس سهلاً، عندئذ بدأت القوات المغولية بمحاصرة المدن الروسية واستمر حصار مدينة كورسك Kursk اكثر من (٥٠) يوماً واقتحم المغول هذه المدينة لكن سكانها ابدت مقاومة شديدة، وتبعاً لذلك أطلق الاعداء عليها "المدينة الشريرة"^(١٠). وتوجه الجيش المغولي بقيادة باتو إلى اوكرانيا Ukraina، في السادس من كانون الأول عام ١٢٤٠م، فنهب شرنيجوف Chernigov، وبرياسلاف Pereyaslav، واستولى على كييف وتم حرقها، وتدمير الحقول الزراعية فيها، ويتحدث المؤرخون المحدثون عن دخول المغول للبلدة وما أحدثته من ضجيج للعربات وخوار الجمال والماشية وصهيل الخيول، وجرافات الحرب الوحشية للمهاجمين حتى أن سكان المدينة كان لا يسمع بعضهم كلام البعض الآخر، إلا بصعوبة نتيجة أصوات العربات والزعيق، واستعد الروس لمواجهة المغول الذين

فرضوا حصاراً طويلاً بعده اخترق المغول دفاعات حاميات مدينة كييف، وهجموا على سكان البلد، وانزلوا بهم القتل والتجأ بعض السكان إلى الكاتدرائية^(١١) من أجل حماية انفسهم، وتم طرد مجموعة من اللاجئين المرعوبين عندما انهارت تحت وطأتهم، ووضعت السيوف على ما تبقى منهم وبعد مقاومة شديدة وسقوط آخر مدافع عن المدينة سقطت كييف في الوقت ذاته، وتم تدمير كنائسها واثلفت ثروة مواردها الغنية وهرب بعض الزعماء الذين استطاعوا انقاذ انفسهم باتجاه الغرب إلى بولندا أو المجر، ولكنهم تركوا ايضاً الآلاف من جنث جنودهم في الأراضي الروسية^(١٢).

اسباب هزيمة الروس امام المغول^(١٣)

اولاً : أدرك المؤرخون الأوروبيون ان الانتصارات التي أحرزها الجيش المغولي، انما اكتسبت بالاعمال الحربية المتقنة، ولا ترجع إلى مجرد التفوق العددي الجارف، بيد أن الحقيقة لم تصبح بعد أمراً معلوماً للجميع إذ لا يزال منتشرأً بين الناس الرأي الشائع الذي يمثل المغول في صورة الجيش الوحشي الذي يجترف كل شيء امامه بقسوة الكثرة العددية وحدها، والذي يرمح بخيوله في ارجاء اوربا الشرقية دون اية خطة حربية، مندفعاً على ما يعترضه من عقبات ومتغلباً عليها بمجرد التفوق العددي.

ثانياً : عدم وجود القوة الموحدة للدولة الروسية، حيث كانت قوى الامارات المنفردة المفككة تواجه الاعداء وتعمل كل منها على حدة، بينما كانت القوات المغولية تتحرك بسرعة كبيرة بمثابة رجل واحد امام القوات الروسية، الامر الذي أدى إلى هزيمة الروس .

ثالثاً : كانت جميع القوات المغولية موحدة عسكرياً تحت قيادة موحدة ومسلحة تسليحاً جيداً، أما القوات الروسية، فإن الامراء ورجالهم هم الذين كانوا مسلحين فقط، وفيما يتعلق بالغالبية العظمى فقد كانت غير مسلحة، الامر الذي أدى إلى تعرضهم للقتل والأسر. أدى استيلاء المغول لمعظم المدن الروسية إلى هجرة معظم الفلاحين والحرفيين الروس في القرن الثالث عشر من القرى والمدن الذي أصابها الدمار، وانتقلوا إلى مناطق الغابات في روسيا الشمالية الشرقية وذلك سعياً للاختفاء من المغول، وزرع الناس أراضي جديدة على ضفاف نهر اوكا Oka وفي اعالي الفولجا Volga، وفي وسط الأراضي نمت وتطورت مدينة موسكو، ونادراً ما كانت هجمات المغول على اماره موسكو المحاطة من جميع الجهات بأراضي امارات ريزان وسمولينسك Smolensk، ونوفغورد، واستقر فيها التجار والحرفيين ونشأ حولها الكثير من القرى، وسرعان ما أصبح امراء موسكو أغنى الجميع في روسيا، ومع ذلك فلم تتوقف الحروب الداخلية فيها من أجل الاستيلاء على اكبر مساحات ممكنة من الأراضي الروسية^(١٤) وكان المغول ذوو المصلحة في تقنين هذه الأراضي من خلال استخدامهم السياسة التقليدية " فرق تسد" حيث قاموا ببيت الخلافات والعداء والتفرقة بين الامراء الروس^(١٥). واستقر المغول في مناطق السهول على ضفاف الفولغا، والدون Don، واقاموا دولتهم التي سميت بالاورطة الذهبية^(١٦) Golden Hordel عاصمتها سراي^(١٧) Saria، ولا بد من الإشارة الى ان الاسلام قد توغل لدولتهم، وقد اسلم الخان بركة بن جوجي (١٢٥٧-١٢٦٧م) قبل ان يعتلي العرش المغولي اثناء وجوده في بلاد ما وراء النهر، حيث التقى بتاجرين قادمين من بخارى فشرحا له تعاليم الاسلام ومبادئه وقيمه الانسانية التي يتمسك بها، فأعجب بها، وهناك رواية أخرى تؤكد أن إسلامه كان بتأثير مشايخ مدينة خوجند وبخارى وبخاصة الشيخ شمس الدين البخارزي الذي أسلم الخان بركة على يديه، وعاهده على أن يحمل قومه جميعاً على اعتناق الإسلام في بلاده، وقد اخلص له وجعل جميع جيشه من المسلمين، وجرت العادة ان يحمل كل فارس في الجيش المغولي سجادة صلاة، حتى إذا ما حان وقتها أدوا الفريضة على أكمل وجه، كما كان لكل أمير وأميرة في بلاطه مؤذن خاص به، وكان الأطفال يحفظون القرآن في المدارس التي انشأها لهم، وقد فتح الخان بركة بلاده للمشاهير المسلمين العلماء من المفسرين والمحدثين والفقهاء وعلماء الكلام، وأصبحت مجالسه تجري فيها المناظرات الدينية بينه وبين اصحاب الأديان الأخرى، وانتشرت فيها المساجد والمدارس الدينية، وبذلك عدت مركزاً علمياً ودينياً مؤثراً لمختلف طبقات المجتمع، وكانت للمغول علاقات متينة مع الشرق العربي في جميع المجالات السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية^(١٨). وسيطروا المغول على جميع المدن الروسية ووضعوها تحت حكام من ابناء جنسهم يدينون بالولاء والطاعة لهم، وفي مناطق أخرى من روسيا استمر الامير في الحكم تحت سيادة المغول، فمنذ القرن الأول من الحكم المغولي قمعت سلطاته بكل عنف من قبل الخان وكانت مقيدة بدرجة كبيرة، حيث سمح له خان المغول ان يحتفظ ببطانة او حاشية غير انهم كانوا من المغول الذين اشرفوا على تجنيد العساكر في جيشهم، واحتفظ الامير بسلطته القضائية في المحاكم بين رعاياه تلك السلطة التي مارسها إما شخصياً أو عبر موظف ينوب عنه، اما عدا ذلك فلم يكن لديه تقريباً واجبات أو مهام ادارية، وكان مقتنعاً بالمجال المحدود لإدارة أملاكه، وهكذا باشر حقوقه وواجباته المتعلقة بملكياته الزراعية الخاصة به وعدّها أكثر أهمية فيما أصبح بلاطه نواة دولته، وأصبح رؤوساء الأقسام الإدارية في إدارة ملكياته المستشارين الأكثر تأثيراً، وكان خدم الامير الأدنى منزلة والمتمركزين حول

بلاطه يعتبرون الدعامة الرئيسية لسلطته^(١٩). اما خان المغول فلم يكن حاكماً سياسياً للروس فحسب، وانما كانت لديه السلطة القضائية والعسكرية والمالية العليا، وقد اخضع كل الامراء الروس للبلاط الاعظم في القبيلة الذهبية، وحوكم عدد منهم واعدموا لجرائم حقيقية أو مزعومة، ولكن في حالة حدوث اية اضطرابات خطيرة كانت الحملات التأديبية تنطلق من الخان التي كانت (سلطته مقيدة ويتلقى اوامره من الخان الاعظم الذي مقره في منغوليا Mongolian)، وقد خصص نسبة من الاموال المحصلة من الامراء الروس ومن المجندين ونقلها الى الخان الاعظم الذي يصدر البراءات للامراء الروس ويمنح التثبيت لمنصب الخان في روسيا لاختام المقاومة^(٢٠). كانت دولة الاورطة الذهبية تجمع الضرائب بمساعدة رؤساء الفصائل العسكرية، حيث أجرى المغول ثلاثة إحصاءات للسكان الروس في سنوات (١٢٤٥، ١٢٥٧، ١٢٧٤م)، وكان النظام الإداري المغولي مرتبطاً إلى حد بعيد بالجيش وعلى شاكلته كان مبنياً على أساس النظام العشري، حيث تتكون الفرق العسكرية من مجاميع، وكل مجموعة تضم عشرة جنود تحسب وحدة عشرة، وهكذا حتى العشرة آلاف وحدة، وتبعاً لذلك قسمت روسيا إلى عشرات ومئات وألوف وعشرات الألوف، وقد جند المغول إلزامياً واحداً من كل عشرة من الذكور مما يعني أن نسبة الجنود كانت عشرة في المائة من السكان الذكور أو حوالي خمسة في المائة من إجمالي السكان، وبناء على ذلك فسكان المائة هم تقريباً ألفان والألفان من ذات العشرة آلاف هم مائتا ألف، وكل مقاطعة تشكل وحدة ضريبية مثلها في ذلك التجنيد الإلزامي وجملة الجزية التي ينبغي أن تجمع في مقاطعات روسيا الريفية كان مجدولاً وفق حساب وحدة العشرة آلاف، وهكذا كانت دوقية فلاديمير تحسب خمسة عشرة من ذات العشرة آلاف، ودفعت دوقية نيزني نغورود خمسة من ذات العشرة الألوف، وفي كل روسيا غربها وشرقها أقيمت أكثر من ثلاث وأربعين من ذات عشرة آلاف، وبناء على ذلك يمكن افتراض أن سكان كل مقاطعات " العشرات الألوف" كانوا حوالي ثمانية ملايين وستمائة ألف، وإذا أضيف إلى ذلك المدن العظمى ومناطق محددة ليست متضمنة في شبكة "العشرات الألوف" فيمكن أن يبلغ إجمالي سكان روسيا في ذلك العهد حوالي عشرة ملايين، ولما كان معظم سكان روسيا يشتغلون بالزراعة، فكانت الجزية تأخذ شكل ضريبة الأرض التي تدفع من كل وحدة زراعية (الأرض المحروثة)، أما التجار في المدن فقد فرض عليهم في بادئ الأمر دفع ضريبة تفرض على رأس المال الشخصي، ثم بعد ذلك استبدلت هذه الضريبة بضريبة على مبادلات السلع وأصبحت تجمع كرسوم كمركية، ولضمان عمل النظام بدون عوائق ركز المغول حاميات عسكرية في نقاط استراتيجية^(٢١). وتعتبر الاغنية الروسية الشعبية بوضوح عن قسوة جامعي الضرائب اذا لم يكن لدى المواطن الروسي المال سوف يأخذون منه أبنه، وإذا لم يكن متزوج سوف يأخذونه، فكانوا السكان الروس يدفعون كل شيء حتى يصبحوا شحاذين في الأسواق العامة ويصبحوا بعد ذلك في مرحلة العبيد، وكان ممن عفي من الضرائب هم رجال الدين اذ كانوا راضخين ويأمرؤا رعيته بالرضوخ، لهذا أصبحت هناك علاقة بين الشعب الروسي والكنيسة الارثوذكسية^(٢٢). وكان هناك أيضاً ضريبة الدم وهي الخدمة العسكرية مع القوات المغولية، وكان على الامراء الروس تقديم جماعات من الجنود الشجعان وتكون مهمتهم السير امام الجيش المغولي لتلقي الصدمة الاولى، على سبيل المثال فقد قدم الامراء الروس قوات كبيرة إلى خان القبيلة الذهبية منكو تيمور Mango Timo (١٢٦٧-١٢٨٠م) لمحاربة شعوب القوقاز، مقابل تسليم المغول نصيب من الغنائم لهؤلاء الامراء^(٢٣). غير ان سوء معاملة المغول للسكان الروس وعنفهم سرعان ما اثاروا اعمال الرد ضدهم، ففي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي اجتاحت روسيا موجة من الانتفاضات الشعبية وطرد سكان نوفغورود وفلاديمير وياروسلافل وسوزدال وغيرها من المدن الموظفين المغول فيها وقتلوهم، ولم تتوقف مقاومة الروس للمغول، الامر الذي أدى بدولة الاورطة الذهبية الى اناطة مهمة جمع الضرائب بالامراء الروس^(٢٤). ولم تعد هناك صعوبة لامراء الروس في انجاز مهمة جمع الضرائب بأنفسهم من السكان بتفويض من قبل خان المغول، بل العكس فقد وجدوا هذا النظام اكثر ملائمة وحتى مريحاً، اذ جمع في بعض المناطق مال كثير لصالح الخان، كما ان الامير كان قادراً على دس الفائض في جيبه^(٢٥). وبعد أن أصبح ايفان الاول Ivan I^(٢٦) اميراً لموسكو كان يذهب إلى الاورطة الذهبية يحمل جوائز كثيرة، وتوصل إلى ان يعينه الخان كبيراً للامراء الروس، وسرعان ما حصل على حق جمع الاتاوة من جميع الاراضي الروسية وحملها الى المغول، وكان يجمعها اكثر مما طلب الغزاة ويحتفظ بالفائض لصالحه وقام بشراء أراضي الامارات المجاورة كما ضمت بعضها بالقوة إلى امارة موسكو^(٢٧). وعندما كان الامراء الروس يستقبلون سفراء الخان كان عليهم السجود أمامهم، وأن يفرشوا لهم السجاجيد الفاخرة، وأن يقدموا لهم الكؤوس المملوءة بقطع الذهب والاستماع بكل اهتمام إلى اوامر الخان وتنفيذها بكل دقة^(٢٨). واتاح نمو قوى امارة موسكو العظمى ورفع دورها كمرکز سياسي لاتحاد الاراضي الروسية الفرصة امام امراء موسكو للتحويل من التبعية للاورطة الذهبية إلى الحرب ضدها^(٢٩).

وتدعم هذا النمو بشكل حاد اثناء تولي ديمتري ايفانوفيتش دونسكوي^(٣٠) Dimitri Ivanovic Donskoi التي جرت اثناء حكمه احداث ذات أهمية تاريخية كبرى، حيث أمر الروس ببناء حيطان حجرية حول الكرملين

Kremlin في موسكو لجعله حصناً منيعاً^(٣١) وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر رفض امراء موسكو دفع الضرائب للاورطة الذهبية فغضب الخان ماماي^(٣٢) Mamay, فقام بتجهيز حملة عسكرية الى موسكو وعقاب الامير ديمتري غير المطيع^(٣٣) وخلال هذا الوقت كان ماماي يواجه تحدياً من قبل مدع جديد للعرش هو الخان اولوس جوجي Ulus Joji الذي يسمى بـ — توكتمش Tokhtamysh, فقرر الخان الاول اعادة توطيد سلطانه في روسيا ووضع امكانياتها تحت تصرفه, ثم يتحول إلى توكتمش, وفي عام ١٣٨٠م قاد ماماي حملة عسكرية ضد موسكو معززا بمشاة جنوبيين إضافة إلى امدادات من الاوستين والجراكسة وكان مجموع قواته نحو ثلاثون ألف مقاتل, وليكفل النجاح قام بعقد تحالف مع الدوق الجديد للليتوانيا Lithuania^(٣٤) ايميلو ابن اولجرد Emilio Aolgerd (المتوفي عام ١٣٨٣م) واتفقا على أن تتجمع قواتهما في حوض الدون الأعلى في الاول من ايلول ١٣٨٠م, وفي مواجهة هذا التجمع المكون من القوات المغولية والليتوانية, قام ديمتري بسرعة بتحريك قوات دوقية فلاديمير البالغة نحو (١٥٠) ألف مقاتل للدفاع عن موسكو, واستخدمت قوات نيزني نوفغورد لمنع المغول من محاولات تطويق جيش دوقية فلاديمير من الشرق, وقد ابدى الموسكوفيين شجاعة فائقة من خلال مباركة أرسلت إلى الجنود من الاب سرجيوس Sergius من دير الثالوس المقدس, وقد اسرع الروس للعمل على منع التحام الجيشين المغولي والليتواني, وعندما عبر الروس اعالي الدون كانت القوات الليتوانية على بعد خمسة وعشرين ميلاً من معسكر المغول, ولم يكن امام ماماي من بديل سوى قبول التحدي الروسي وجرت المعركة عند كوليكونو Kuilikovo على نهر الدون عام ١٣٨٠م وكان من اهم نتائجها انتصار الروس وهزيمة المغول, وانسحاب الليتوانيين الى بلادهم, بمجرد سماعه انباء الهزيمة, وعمت الفرحة في جميع انحاء روسيا^(٣٥) بولادة امة روسية أساسها عقيدة أرثوذكسية واحدة وتعاليم مستمدة من كنيسة بيزنطية, كما أن النصر الذي حققه الروس على المغول اثار الروح الوطنية التي حركت كوامن ما في صدور الروسيين من حماسة, وامتدت اختراعات البارود والمدفعية بسلاح جديد, للتححرر من السيطرة المغولية^(٣٦).

لم تكن الضربة التي سدها الروس إلى المغول حاسمة, وعلى الفور شرع ماماي في الاعداد لحملة جديدة ضد موسكو, كانت من اهم نتائجها انتصار الروس وهزيمة المغول وفر ماماي إلى القرم Crimea, حيث قتله الجنوبيون, وأصبح حينئذ توكتمش زعيماً مغولياً, أخذ على عاتقه المهمة التي فشل فيها ماماي وهي اعادة توطيد السيادة المغولية في روسيا, ونظراً لاستنفاد الجهود خلال ١٣٨٠م, فإن روسيا لم تكن مستعدة لحرب أخرى, لذا أرسل الامراء الروس بتهانيهم إلى الخان توكتمش, لكنهم كانوا غير راغبين في العودة إلى تعهداتهم القديمة في محاولة لكسب الوقت, ولم يكن الخان مستخفاً بقوة الروس, وقد عرف جيداً أن فرصته الوحيدة تكمن في السرية والسرعة, وعندما وصلت انباء تقدمه إلى موسكو عام ١٣٨٢م لم يكن لدى الامير ديمتري جنود في الميدان تحت تصرفه, وذهب شمالاً لإعداد جيش جديد, لكنه ترك حامية قوية في موسكو مجهزة بمدافع, وقد ذكرت معظم المصادر التاريخية انها المرة الاولى التي تم فيها استعمال الروس للأسلحة النارية, وقد فشل توكتمش في محاولة اقتحام اسوار المدينة فطلب هدنة من الروس ثم انتهكها واحتل موسكو عن طريق الحيلة والخداع, وقد نهبت هذه المدينة وأحرقت وجميع المدافع عنها إما قتلوا أو أسروا, ودمرت المناطق المحيطة بموسكو, وعاد توكتمش إلى ساراي في قوافل محملة بالغنائم والاسلاب, وبدا المغول مرة أخرى في مقام السلطة والسيطرة, كما أن الأمراء الروس ومن بينهم الامير الروسي ديمتري وجب عليهم ان يتقدموا للحصول على براءة الخان وأن يستأنفوا دفع جزية بانتظام إلى الخان دون تأخير^(٣٧). ولحسن حظ روسيا, فإن بعث قوة القبيلة الذهبية وقدرتها من جديد تحت قيادة توكتمش ثبت أنه مؤقت وعابر, حيث ظهرت شخصية قوية شاركت في رسم سياسات غربي اوراسيا — تمثلت بالزعيم الكبير تيمورلنك Timur^(٣٨) الذي دخل في صراع شديد مع توكتمش لمدة ثماني سنوات, واخيراً هزم توكتمش عام ١٣٩٥م واستطاع اخضاع الاورطة الذهبية بعد ان وجه لهم ضربات شديدة واضعفهم ودمرت قواته جميع المدن الرئيسية في القبيلة الذهبية بما فيها عاصمتهم سراي, وبهذه الضربة القاضية اضعف تيمورلنك قدرات الخانات العسكرية, ولم يكن باستطاعتهم العودة الى سابق مجدهم تماماً, وبعد ان سدد تيمورلنك الضربة القاضية لتوكتمش شرع في ارسال حملة إلى موسكو غير أن موسكو في هذا الوقت كانت على استعداد جيد فنشر باسيل الاول Basili I (١٣٨٩-١٤٢٥) ابن ديمتري قواته القوية على طول نهر اوكا استعداداً لأي احتمال, وعلى اية حال لم يكن تيمورلنك راغباً بخوض الحرب ضد الروس, اذ توقف في القسم الجنوبي من مقاطعة ريزان, ثم تراجع إلى سمرقند, ومع انه كان لديه امل في هزيمة الروس فإنه كان مدركاً لحقيقة أن النصر سيكون مكلفاً, علاوة على ذلك أن مركز امبراطوريته يقع شرقاً أكثر مما ينبغي, كما أن حكم منطقة الغابات الروسية ليس مغرياً ولا جذاباً بالنسبة له^(٣٩). إن النتيجة الجوهرية لهذه الاحداث أن الروس بإمكانهم أن يستأنفوا مخططاتهم للتححرر, فأصبح دفع الضريبة غير منتظمة, وأصبحت موسكو من الناحية الواقعية شبه مستقلة وأصبحت القبيلة الذهبية بالنسبة لموسكو خصماً أقل خطراً من دوقية ليتوانيا, وفي عام ١٣٨٥م وقعت اتفاقية

اتحاد بين ليتوانيا وبولندا فتزوج الغراندوق إيجيلو Yagailo الليتواني من ملكة بولندا يادفيغا Aadwiga , وانتخب ملكاً , واعترف بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية كنيسة رسمية لدولة ليتوانيا ونالت طبقة النبلاء الليتوانيين كل حقوق النبلاء البولنديين وامتيازاتهم, إن اتحاد القوتين قد أعان بولندا وليتوانيا كثيراً في صراعهما ضد الفرسان الاقطاعيين الالمان الذين كانوا يهجمون على الأراضي الروسية للاستيلاء عليها^(٤٠). ان هذه اتفاقية لم تعني فقط اتحاداً شخصياً بل اندماجاً لدوقية ليتوانيا في مملكة بولندا , ومع ذلك فالواقع أن ليتوانيا ظلت مستقلة بشخصيتها كدولة, وفي سنة ١٣٩٣ اعترف بفيتوفت Vitovt ابن عم إيجيلو كغراندوق للليتوانيا تحت السيادة الاسمية لايجيلو, وفي وقت قصير أصبح فيتوفت الحاكم الأعظم قوة في شرق أوروبا, وقد حمل معه مخططات طموحة لطرد التتر من منطقة استبس الدنيبر Dniepr, بالإضافة إلى التوسع للسيطرة على كل المقاطعات الروسية, وفي سنة ١٣٩٥ أخضع سمولسك, وشرع في عمل تربيينات لمهاجمة نوفغورد وبعد ثلاث سنوات حدث تحول غير متوقع في سياسات التتر , قدم الذريعة لفيتوفت للتدخل في شؤون القبيلة الذهبية إذ اشتد التنافس والصراع الحاد بين الخانات المغولية من أجل مقاليد السلطة في دولة الاورطة الذهبية, فبعد انسحاب تيمورلنك من روسيا حاول توكتمش ان يعيد سيطرته على القبيلة الذهبية , لكنه أخرج على يد الخان ايديجي Aadege , الذي تولى السلطة هناك من قبل تيمورلنك وأصبحت السلطة الفعلية في القبيلة الذهبية في ذلك الوقت في يد امير ايديجي الذي كان وضعه مساوياً لوضع مامي, وفر توكتمش إلى ليتوانيا يلتمس الحماية من فيتوفت ووقعت اتفاقية بين هذين الزعيمين تقضي بتقديم فيتوفت العون والمساعدة لتوكتمش من أجل اعادته الى عرش القبيلة الذهبية مقابل تخليه عن حقوق السيادة في روسيا, وفي عام ١٣٩٩م قاد فيتوفت جيشاً كبيراً مجهزاً باحسن تجهيز بالمدافع وكانت وجهته منطقة الاستبس وراء الدنيبر وكان تحت إمرة فيتوفت قوات اضافية وفرسان الالمان الاقطاعيين الى جانب وحدات ليتوانية, ووحدات من غربي روسيا وجميعها أرسلت توكتمش مع ما لديه من قوات مغولية, وقد قابل ايديجي هذا الحشد عند ضفة فرسكلا Vorskla, وقد انتهت المعركة بنصر كامل لإيديجي, وفرار كل من فيتوفت وتوكتمش إلى ليتوانيا^(٤١). لقد استنفدت هذه الهزيمة بضع سنوات كي يعيد فيتوفت مكانته ويعيد بناء جيشه, وفي عام ١٤١٠م أنضم إيجيلو في حملته الأخيرة ضد فرسان الاقطاعيين الالمان, وقد تمكن الجيش المتحد من البولنديين والليتوانيين وجيوش غربي روسيا من إلحاق هزيمة ساحقة بالفرسان عند تاننبرج Tannenberg في بروسيا الشرقية, وفي عام ١٤٦٤م اعترفوا الفرسان الاقطاعيين الالمان بسيادة ملك بولندا, وفي عام ١٤٢٥م توفي باسيل الاول غراندوق موسكو تاركاً ابنه الاكبر باسيل الثاني Basili I (١٤٢٥-١٤٦٢م), الذي لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره, وقد التمس والدته صوفيا Sophia ابنة فيتوفت على الفور من والدها توفير الحماية لابنها من منافسيه أمراء دوقية فلاديمير العظمى, وقد قدم حمايته, غير أنه في خلال ذلك استأنف فيتوفت محاولته بسط سلطانه على كل روسيا, واعترف دوق ريزان الكبير وكذلك دوق تغير بتبعيتهما له, وفي عام ١٤٣٠م توفي فيتوفت, وعقب وفاته قامت عدة اضطرابات في كل من ليتوانيا وموسكو وأصبحت السيادة للامير الصغير كازيمير ابن ايجيلو التي اعترف بها من قبل الجماعات المنشقة في ليتوانيا عام ١٤٤٥م, ثم بعد فترة قصيرة انتخب ملكاً لبولندا باسم كازيمير الرابع Casimir IV مع بقائه غراندوق ليتوانيا, وفي تلك المناسبة أصدر مرسوماً أصبح حجر الزاوية للحكومة الدستورية للدوقية العظمى عام ١٤٤٧م, وفي غضون ذلك تطور في موسكو صراع طويل بين باسيل الثاني وابنائيه للسيطرة على مقاليد السلطة واستمر حتى بعد وفاته, وقد تقافم صراع الامراء بتدخل المغول, فخلال ذلك الوقت كانت القبيلة الذهبية قد انقسمت إلى جماعات مستقلة وإحدى هذه الجماعات قادها أولغ محمد الذي تحرك على مقربة من حدود روسيا في منطقة نهر أوكا, وقد التمس هذا الخان من باسيل الثاني أن يتخلى له عن إحدى المدن في هذه المنطقة متعهداً له بالدفاع عن الحدود الروسية من القبائل التتارية الأخرى, لكن الامير الروسي رفض طلبه, ونشبت الحرب بين هذين الحاكمين وكان في معية كل منهما أعداد صغيرة من الجنود ولدى اقتراب كتيبة من المغول تقدر نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي بقيادة أحد أبناء الخان من مدينته سوزدال قام باسيل الثاني بمهاجمتها بقوة لا تزيد عن (١٥٠٠) مقاتل لكنه هزم وأخذ أسيراً, وهكذا كان هذا الصدام العرضي غير المتوقع قد نال أهمية تاريخية كبرى عام ١٤٤٥م^(٤٢).

لم يكون المغول يتوقعون مثل هذا النجاح الحاسم, وفي بادىء الأمر تحيروا فيما يمكن عمله مع أسيرهم, ولم تكن قبيلة أولغ محمد بالقوة الكافية التي تؤهلهم لحكم روسيا مباشرة, وكانت خطة الخان تقضي بتوطيد حكمه في خانية كازان Khanates Kaszan وراء الفولجا واستغلال روسيا مصدراً دخل, وهكذا تعهد باسيل الثاني بدفع فدية كبيرة من أجل اطلاق سراحه وللإشراف على جمع الفدية, وكذلك الجزية المعتادة, أرسل أولغ محمد بعض أبنائه وبعض الأمراء التتر الآخرين إلى روسيا مع وحدات عسكرية قوية, وقد اختار لهم باسيل الثاني عدداً من المعسكرات المناسبة في عدد من المدن الروسية المختلفة وقد ذهّل الروس وصعقوا وبدا لهم أن أيام الخان باتو قد عادت وعاد المغول لحكم روسيا مرة أخرى, وقد دبر ديميتري شيميكا Dimitri Shemiaka, وهو ابن عم لباسيل الثاني وخصمه لزمّن طويل مؤامرة وأعلن نفسه غراندوق, وقبض على باسيل الثاني وسُملت عيناه بأمر

شيميكاً، ولم يمض وقت قصير حتى تجمع مؤيدو الاول لمساعدته، وكان نواة هذه المجموعة الارستقراطية الادنى المحيطة به في بلاطه وكذلك عدد من الامراء الفقراء من آل ريورك الذين دخلوا في خدمته، وظلوا على ولائهم له اضافة إلى اساقفة الكنيسة الذين عارضوا شيميكاً واخيراً وليس اخراً أميران مغوليان هما ولدا أولغ محمد، وكل هؤلاء حضروا بقواتهم لتقديم العون إلى باسيل الثاني وأعيد إلى عرشه بعد عام من سقوطه وانسحب شيميكاً إلى ما وراء الفولجا ومن هناك حاول استمرار المقاومة لكنه تلقى هزائم عديدة، وأخيراً فر إلى نوفغورود وتوفي هناك مسموماً على ايدي عملاء موسكوفيين^(٤٣). انتهت الحرب الاهلية وكانت من اهم نتائجها الجوهرية التعاضد الكبير لسلطان غراندوق موسكو إذ ألحقت بدوقية موسكو العظمى إقطاعيات الأمراء المتمردين إضافة إلى إقطاعيات بعض الأمراء الموالين، وقد عادت دوقية نيزني نوفغورود مرة أخرى جزءاً من دوقية موسكوفيا، وكانت هذه الدوقية قد ضمت إلى موسكو اiban عهد باسيل الاول عندما تداعت قوة توكتمش ثم أعلن استقلالها من قبل شيميكاً وتقلص أيضاً استقلال نوفغورود إلى حد ما بعد النصر الذي حققته جيوش موسكو على جيوش نوفغورود عام ١٤٥٦م، وبالنسبة للعلاقات الروسية المغولية، فإن تطور الاحداث كان في صالح موسكو، فقد قتل أولغ على يد أكبر أبنائه محمود الذي أصبح خاناً لكازان ورفض أخوة محمود وعدد من نبلاء المغول (التتر) الاعتراف بسلطانه فالتحق بعضهم بخان آخر أقام معسكره في منطقة الدنيبر الوسطى فيما دخل الآخرون في خدمة غراندوق موسكو ومن بينهم قاسم ابن أولغ، وهكذا بدلاً من أن يحكموا روسيا أصبح بعض المغول خدماً لغراندوق موسكو، والواقع أن كل ذلك دل على أن الحكم المغولي لروسيا قد بلغ نهايته ولتفاقي سوء الفهم بين المغول (الموالين) والروس أقام باسيل الثاني اتفاقاً يقضي بأن يخلي المغول مدن وسط روسيا التي سبق أن احتلوها عام ١٤٤٥م وأن يستلموا بدلاً عنها أراضي للاستقرار فيها عند الحدود الجنوبية لموسكوفيا وكجزء من هذا المخطط أنشئت خانية التتر التابعة لسيادة موسكو عام ١٤٥٢م في المنطقة الوسطى لنهر أوكا تحت حكم ابن الخان قاسم، واصبحت عاصمة هذه الخانية تعرف بقاسيموف Kasimov، وعرفت الخانية باسم قيصرية قاسيموف^(٤٤). إن انشاء دولة مغولية تابعة للسيادة الموسكوفية عزز بدرجة كبيرة مكانة غراندوق موسكو في عالم التتر والمغول الذين كانوا لتوهم قد فقدوا وحدتهم، ولم تعد القبيلة الذهبية تحكم سوى منطقة الفولجا الادنى ونشأت خانية كازان الجديدة في الفولجا الاوسط عام ١٤٤٥م، علاوة على ذلك أقيمت خانية مستقلة عام ١٤٤٩م في القرم على يد الخان حاجي جاري مؤسس أسرة جاري التي حكمت القرم حتى أواخر القرن الثامن عشر، إن الانقسام بين المغول قد قوض قوتهم وأضعفها وجعل مركز روسيا أقوى نسبياً، وقد استمرت جماعات مختلفة من المغول في الإغارة على الحدود الروسية بين الحين والآخر، ووصلوا في بعض الاحيان إلى ضواحي موسكو، لكنهم لم يشكلوا خطراً كبيراً، واستمرت موسكو تدفع ضريبة رمزية إلى احد الخانات، لكنها كانت مستقلة^(٤٥).

الا ان الخطوة المهمة التي خطاها الروس في سبيل توحيد الاراضي الروسية كانت في عهد ايفان الثالث Ivan III^(٤٦) حيث كانت البلاد الروسية في بداية حكمه مجزئة سياسياً إلى اجزاء عديدة، بعضها تحت الحكم الوطني والبعض الآخر تحت الحكم الأجنبي، وكانت موسكو تسيطر على الجزء الذي أصبح فيما بعد قلب روسيا الكبرى، وحولها كانت تقع الامارات الأخرى تحت حكم أمراء يتمتعون بالاستقلال على نحو ما، أما المناطق الأخرى التي يسكنها الروس: روسيا الغربية، وروسيا الصغرى، فقد كانت خاضعة للبولنديين والليتوانيين، فقد أكد الامير ايفان الثالث على تحقيق طموحه السياسي بتوحيد جميع الاراضي التي كانت تخضع لروسيا الكيفية في ذروة قوتها، وذلك بوضعها تحت السيطرة الموسكوفية وقد عرف هذا المشروع باسم " تجميع الاراضي الروسية معاً"^(٤٧) فقد انجز ايفان الثالث جزء من هذا المشروع الوحدوي، تمثل بتجهيز حملة عسكرية على نوفغورود التي كانت تعد من أقوى مراكز تجاري في الأراضي الروسية، اذ كانت تسيطر على المناطق التي تحيط بها مباشرة في نصف قطر يبلغ مائة وخمسين ميلاً من المراكز، وكذلك على طرق واسعة في شمال روسيا تمتد شرقاً في جبال الاورال، ومع أن نوفغورود كانت تفوق موسكو إقتصادياً إلا أنها كانت دون موسكو من حيث القوة العسكرية، وبذلك وجد ايفان الثالث مبرراً للهجوم عليها، واستطاع ان يحولها عام ١٤٧١م إلى امارة تدفع له الجزية، وبعد سبع سنوات ضم جميع أراضيها اليه التي كانت ليتوانيا تطالب بها^(٤٨). ورغم هذا النجاح السياسي الذي حققه ايفان الثالث الا انه لم يكن مطمئناً على مستقبله السياسي لوجود النفوذ المغولي في روسيا، فقد رأى ان التحرر من المغول أصبح امراً يسيراً، اذ لم يبق لهم سوى ثلاثة مراكز في " سراي وكازان والقرم " فقرر ان يضرب كلا منها بالأخرى حتى اطمأن انها لن تتحد ضده، ومن اعظم اعماله تغلبه على ما بقي من نفوذ المغول عندما اكتشف ضعفهم وتفرق كلمتهم، امتنع عن دفع الجزية لهم (وكانت الجزية آخر مظهر من مظاهر النفوذ المغولي في روسيا)^(٤٩). فعندما وصل رسل الخان إلى موسكو يحملون وثيقة الخان لجمع الاتاوة افزعهم ما رأوه حينما مزق الامير ايفان الثالث هذه الوثيقة والقاهها ارضاً وأخذ يطؤها بقدميه قائلاً: " قولوا لخانكم ما حدث لوثيقته، وأنه سيحدث له نفس الشيء اذا لم يترك الارض الروسية بسلام"^(٥٠). وعاد الرسل مسرعين بخيولهم إلى بلادهم

واخبروا الخان احمد بما حصل، الامر الذي ادى ان يعقد خان دولة الاورطة الذهبية اتفاقية مع كازيمير الرابع ملك بولندا وليتوانيا، ثم طلب الخان احمد من ايفان الثالث الاعتراف بسيادته رسمياً، لكن الأخير رفض ذلك، ولم يكن أمام الخان من بديل سوى استعادة سلطته بالقوة، فقام بتجميع قوات كبيرة وقادها الى موسكو، قاصد ان يعاقب الشعب الروسي بقسوة وان يخضعه من جديد، واستطاع ايفان الثالث ان يعقد حلفاً مع امارة شبه جزيرة القرم المغولية المعادية للقبيلة الذهبية، وفي عام ١٤٨٠ تركزت قوات احمد عند نهر الاوكا، ومن ثم انتقلت نحو اعالي هذا النهر واتجهت الى نهر أوغرا الذي كان يشكل الحدود بين موسكو وليتوانيا، وكان جيش كازيمير الرابع مستعداً للانضمام اليه، وقد صدّ الروس محاولات عبور المغول ضفة نهر اوغرا، غير ان الوضع ازداد تعقيداً، اذ هجم الفرسان الليفونيون على اراضي بسكوف، واشتد النزاع بين ايفان الثالث واخوانه، وفي موسكو رأى بعض الاعيان البويار الكبار ان من الضروري عقد الصلح مع الخان احمد مهما كلف الامر، وتنازل ايفان الثالث لاخوانه فاستطاع ان يطفىء نيران الاضطرابات الاقطاعية التي اشتعلت، واحتلت قوات الروس الموحدة مواقع حصينة الى جنوب موجيسكس Mujesc، وهجم تتر القرم على اراضي كازيمير الرابع ولم يحصل الخان احمد على مساعدة من الامير الليتواني حيث انشغل لصد هجوم جاري حليف ايفان الثالث على المقاطعات الاوكرانية التابعة لغراندوق ليتوانيا مما جعل كازيمير الرابع يوجه انتباهه لصد هذا الهجوم ووجه أخا منجلي جاري الذي دخل في خدمة ايفان الثالث ومعه عشيرته وكتيبة من الفرسان المسكوفيين للقيام بغارة على معسكر الخان احمد القريب من ساراي وقد فرضت أخبار الغارة على الخان، ليأمر بالانسحاب الفوري لجيوشه فيما انسحب في الوقت ذاته الجيش الروسي وبسرعة الى موسكو عام ١٤٨٠م، وفي الوقت نفسه هوجمت القبيلة الذهبية من قبل خان تيومن صديق ايفان الثالث مدعماً بقبيلة نوقاي، وقتل الخان احمد في خيمته، وبذلك انتهت القبيلة الذهبية وحل محلها خانية استراخان Astrakhan، وهي على أية حال كانت ضعيفة ولا تشكل أية تهديد لموسكو، وعقب وفاة احمد وجه ايفان الثالث اهتمامه الى شؤون خانية كازان حيث برز صراع بين الخانات المغولية من اجل مقاليد السلطة، الامر الذي أدى الى ضعف المغول وتفرق كلمتهم، وهكذا استطاع ايفان الثالث تحرير روسيا من نير خانات المغول عام ١٤٨٠ الذي دام قرنين ونصف القرن تقريباً، وكان ذلك نصراً تاريخياً عظيماً ضمن استقلال الدولة الروسية وهياً الظروف لمتابعة تطورها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً^(٥١). كتب فريدريك انجلز Frederick Engels قائلاً: " كان تحرير روسيا من السيطرة المغولية الذي دام قرنين ونصف القرن تقريباً نتيجة العمل البطولي المستمر، ومما سهل هذا التحرر تحلل الاورطة الذهبية في القرن الخامس عشر الى دويلات الخانات الاقطاعية المتفرقة _ دويلات القرم واستراخان وقازان وسيبيريا Siberia التي اشتد التنافس فيما بينها، وفي دويلة قازان انتفض شعباً منطقة الفولغا (التشفاشيون والموردفيون) للتحرر من الخانات المغولية "^(٥٢).

انعكاسات لاحتلال المغولي على الاوضاع العامة في روسيا ترك الاحتلال المغولي لروسيا الذي استمر نحو قرنين ونصف القرن تقريباً اثار ايجابية وسلبية على المجتمع الروسي من جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والثقافية يمكن استعراضها بما يأتي: ففي المجال السياسي فإن سقوط المدن كان يعني ضعف سلطة مجلس المدينة المعروف بـ (الفيشي)، علاوة على ذلك حاول المغول وبتعمد كبح هذا المجلس عن أداء دوره، لأنهم كانوا يعتبرون سكان المدينة مسؤولين عن أية معارضة لسلطة تابعة لهم تركت في روسيا، وكان الأمراء في معظم الأحوال نزاعين إلى الشك بمجلس المدينة، لذلك كانوا على استعداد لإتباع تعليمات الخان فيما يتعلق بإدارة المدينة، كما حلت ميليشيات المدينة، ونتيجة لكل هذا توقف الفيشي عن أداء عمله في موسكو، عدا لحظات انبعاث قصيرة ومتقطعة من حين لآخر أثناء الأزمات، على سبيل المثال أثناء قيام المغول بالحملات العسكرية على المدن الروسية، وهكذا كان العنصر الديمقراطي في النظام الحكومي لروسيا القديمة قد تحطم، إلا في نوفغورود وبسكوف، اما مجلس البويار Boyars^(٥٣) الممثل للعنصر الارستقراطي في حكومة كييف فقد استمر في دعم الأمير، لكنه فشل في كسب أية حقوق دستورية، في حين كان الأمير خاضعاً كلياً للخان فإن براءة التي حصل عليها من قبل الأخير في ذلك الوقت قد حتمته أمام المطالب السياسية سواء من قبل سكان المدينة أم من طبقة النبلاء، وبالتأكيد ظل البويار يعتبرون أحراراً في الانتقال من أمير إلى آخر، فيما ظل احتفاظهم بإرثهم في الملكيات، ومع ذلك فمع نمو موسكو، نظر الامير الكبير بازدراف نحو أولئك البويار الذين تركوا خدمته خصوصاً في أوقات الحرب أو في أثناء النزاع بين الامراء، فاتهمهم بالخيانة، وتمت مصادرة ملكياتهم أو اعدامهم^(٥٤). ولا يمكن فصل المجال السياسي عن الاقتصادي، فلم يستطع الحكم المغولي أن يؤثر في صلب البناء الاقتصادي الروسي كافة، لكنه ترك الكثير من الآثار الجديرة بالملاحظة والتي لا يمكن محوها في الحياة الروسية لفترة طويلة بعد تحررها، فعندما دخلوا المغول في النصف الثاني من القرن الثالث عشر احلوا الدمار والخراب في معظم المدن الروسية، وهذا بدوره قد شكل ضربة خطيرة جداً للحضارة المدنية، علاوة على ذلك تسخير الايدي العاملة الماهرة الفنية لخدمة خان المغول الذي افسد بدوره تماماً الانتاج الصناعي الروسي

وعطله، وتوقفت العديد من الصناعات الروسية مثل فنون الصناعات المطلية بالمينا والصناعات الدقيقة وأشغال زخرفة المعادن، وعملية قطع الأحجار، الامر الذي أدى إلى تدهور الحرف الصناعية في المدن^(٥٥). بينما الزراعة قد استمرت في الازدهار، حيث ترك اضعاف النير المغولي أثراً كبيراً على تطور الزراعة، واستصلاح الأراضي غير الصالحة التي كانت تسمى في حينها " المروج البرية " فيما وراء نهر اوكا، واواسط الفولغا، واعدادوا بناء القرى القديمة وانشأوا قرى جديدة، وأصبحت الدورة الثلاثية هي الشكل السائد في زراعة الارض، مما جعل روسيا بلاداً يغلب عليها الطابع الزراعي، والركيزة الأساسية للاقتصاد الروسي^(٥٦). اما في القرنين الرابع عشر والخامس عشر فقد شهدت روسيا نهوض اقتصادي، تمثل بتطور المدن التي عدت مراكز لحضارة القرون الوسطى، وأدى بعث الانشاء الحجري في المدن الكبرى الى تحسين تكنيك البناء، وكان من بين البنائين كثير من النجارين والحجارين وصانعي الطابوق الماهرين، واستعمل المعمارون الروس في انشاء البنايات وسائل البناء مثل العتلات والبكرات وغيرها، وساهم صناع الاسلحة الحدادون وصناع قمصان الزرد والدروع والاقواس مساهمة كبرى في تعزيز القوات المسلحة، وبدأ صنع الاسلحة النارية في موسكو وتغير في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، حيث استعمل سكان موسكو البارود والمدفعية لصد هجمات المغول^(٥٧). وبدأ تعلم القراءة والكتابة ينتشر من جديد، وكان الورق عندئذ يجلب من الخارج، اما الورق المصنوع من جلود العجول فكان ثمنه غالياً، لذلك كانت " الابجديات " المستعملة في تعليم الاطفال تصنع من الخشب (وقد عثر على واحدة من هذه الابجديات التي كانت تصنع لاغراض البيع في نوفغورد)، وفي القرن الخامس عشر ظهرت كتب مخطوطة في الحساب وعلم الهندسة كانت تستعمل للارشاد عند القيام باعمال المساحة، وترجم الى اللغة الروسية كتاب العالم اليوناني غالين الطبي الذي تضمن وصفاً لمختلف الامراض، ولا بد من الاشارة اليه اثناء هجوم المغول لموسكو عام ١٣٨٢م احترقت كثير من الكتب المخطوطة تعود الى الامراء ورجال الكنيسة، التي قد جمعت من جميع القرى والمدن الروسية المجاورة لكي تحفظ في كاتدرائية الكرملين^(٥٨). وانبعث الثقافة الروسية من جديد التي جسدت افضل آثارها نمو وعي الشعب في العمل التحرري من النير المغولي التي تجلت بنبوغ البنائين والمتقنين والرواة الشعبيين والمعماريين والرسامين، فقد ازدهر فن العمارة في بداية القرن الخامس عشر، حيث تم بناء في كرملين موسكو القصور والقاعات والكنائس والاديرة وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر انشئت في الكرملين الكاتدرائيات التي تزينه حتى الآن التي تمثلت بـ كاتدرائية اوسبينسكي Uspensky، وبلاغوفيشينسكي Blagovicansky، واركخانجلسكي Arkhanijsky، وبرج ايفان فيليكسكي Ivan Veliky، وانشئت القاعة المضلعة حيث تشكل جزءاً من مجموعة قصور كرملين موسكو من اجل حفلات الاستقبال المهمة وقد تجسد عمل ونبوغ المعماريين في الكاتدرائيات الحجرية الكثيرة التي انشئت في نوفغورد وبسكوف وتغير وغيرها من المدن الروسية، وكان فاسيلي يرمولين Vasily Aramoulan معمارياً ونحاتاً روسياً مشهوراً في القرن الخامس عشر، فهو الذي انشأ جدران الكرملين الحجرية و" حفر على الحجر التماثيل"، كما ابدع الرسامان العبقريان فيوفان غريك Viovan Greek، واندرى روبليوف Andrei Robleov، ومجموعة من الشباب الفنانين وهؤلاء يسمون بحق " بأكاديمية الفنون الموسكوفية"، ففي الرسوم الحائطية التي تركها هؤلاء الفنانون تبرز الفخامة بالدراما وتناسق الألوان الزاهية بالنزعة الانسانية، وعبر وجوه القديسين في اللوحات الينا اناس ذلك العصر الاحياء بملامح وجوههم الروسية الخالصة وكان اندري روبليوف مؤسس مدرسة كاملة، وقام بتزيين كاتدرائية بلاغوفيشينسكي في كرملين موسكو، كاتدرائية اوسبينسكي في فلاديمير وكاتدرائيات دير ترويتسه – سيرغييف Troytse-Sergeyev، وقد اثر فن روبليوف تأثيراً هائلاً في تطور الفن الروسي، وتعد لوحته " ثالث العهد القديم " المشهورة في دير الثالث المقدس واحدة من تحف الفن العالمي في عصر النهضة، وتكمن جمال إبداعات روبليوف في الهدوء الساكن وانسجام الألوان في الترتيب، ويوجد تشابه أكيد بين أعماله وأعمال معاصريه مثل الرسام الايطالي فرانجيلكو Frangelko، ولاقي فن رسم الصور المصغرة انتشاراً واسعاً وزين الرسامون الروس المخطوطة بمئات الصور الصغيرة الملونة الزاهية والزخارف الغربية حيوانات او نباتات خيالية، علاوة على ذلك جرى وضع مجموعة من القوانين لاجل محكمة الامير، كان من اشهرها واكثرها روعة قانون الميزان العادل، الذي يعدّ مرشداً للقضاة الكنائسيين والمدنيين، وكانت صورة " القاضي العادل " الجالس على العرش مرسومة على صفحة العنوان من المخطوطة الكبيرة لهذه المجموعة^(٥٩). وارتبطت السياسة بالفن الروسي ارتباطاً وثيقاً، حيث أدت دوراً فاعلاً في تطور الأدب، والفولكلور، تمثلت بنبوغ الرواة الذين قاموا بتأليف الروايات والملاحم والقصص كانت من اشهرها " روايات عن مجزرة الخان مامي"، و" ملحمة زادوتشينا Zadonshina " أي " مآثر وراء الدون " التي تمت الاشادة فيها ببسالة المحاربين الروس والقائدين الجسورين ديمتري دونسكوي وديمتري بوبروك وغيرهما من القادة العسكريين الذين حطموا جحافل القوات المغولية التي قادها مامي، علاوة على ذلك تم تأليف مجموعة من القصص عن معركة كوليكوفو وقد سجلت بعضها في

التواريخ، وفي كثير من مدن روسيا يجري تسجيل الحوادث، فتوحيد الأراضي الروسية حول موسكو استدعى ضرورة وضع مجموعة سجلات روسية عامة للحوادث، وفي نهاية القرن الرابع عشر كتب في موسكو " السجل الروسي الاكبر " الذي حاول مؤلفوه تعظيم سلالة امراء موسكو، فمدحوا ايفان كاليتا وخلفائه في عرش الامير الكبير^(٦٠).

وفي مجال الفولكلور نقحت القصص الشعرية المتداولة شفاهة في روسيا القديمة في كييف في القرنين العاشر والثاني عشر التي اطلق عليها بـ " Byliny البيليني " على يد رواة شعبيين التي تتمحور حول بطولات الامير فلاديمير في مقاومة الاحتلال الأجنبي ، علاوة على ذلك كان الفولكلور الروسي يتغنى باباطال التحرر الوطني وتحدث " اغنية شيلكان " عن جور الامير المغولي في مدينة تفير مطلعها:

من لم يكن لديه مال يأخذ منه ابنه او زوجته ومن لم تكن لديه زوجة فكان الخان المغولي يقتله وكانت نتيجة هذه السياسة المغولية الجائرة ، فقد قام معظم سكان تفير بمسك هذا الخان من شعره ، والقسم الاخر تم مسكه من رجله، ومزقوه حتى الموت^(٦١). وبذلك عدت السياسة المغولية الجائرة، وتدمير المدن الروسية على يد المغول موضوعاً للفولكلور الروسي المعاصر في تلك المدة. وكانت الصدمة الاولى للاحتلال المغولي مؤلمة للكنيسة، فقد هلك في المدن المدمرة العديد من رجال الدين، وأحرقت أو نهبت وسلبت الكاتدرائيات، والاديرة، والكنائس، وقتل ابناء الأبرشيات أو أخذوا رقيقاً، حيث أديرت الكنيسة الروسية من قبل المطران^(٦٢) الروسي أو اليوناني المتمرسين في القسطنطينية، ومن بين المهام الشاقة التي واجهت الكنيسة في العهد المغولي كانت الاولى تقديم النصيحة الروحية والدعم الاخلاقي للناس الذين اصابهم الحزن نتيجة فقدانهم ابائهم واخوانهم وابنائهم في المعارك التي خاضها الروس ضد المغول، والساخطين على الامراء الموالين لسياسة المغول، علاوة على ذلك بذل رجال الدين جهوداً كبيرة من اجل نشر الديانة المسيحية الارثوذكسية بين مختلف طبقات المجتمع الروسي، ومما تجدر الاشارة اليه أنه في عصر كييف كانت المسيحية قد ترسخت بقوة بين الطبقات العليا وسكان المدن غير أنها لم تنفذ بعمق إلى المقاطعات الريفية، ولم يكن الدين حائلاً في وجه المغول فقد تعاملوا مع جميع الاديان بسماحة متوازنة، وتم تنصير القرويين أيضاً، وهذه المهمة انجزت عن طريق جهود مكثفة لرجال الدين اولاً ونمو الشعور الديني بين الناس أنفسهم ثانياً، وقد تزايدت أعداد الكنائس والاديرة في كل من المدن والمقاطعات الريفية، والسمة المميزة لحركة الرهبنة الجديدة هي روح المبادرة التي قادها أفراد وهم شباب متقد بروح متوهجة تلقوا طقوس الرهبنة كي يذهبوا إلى البرية في اعماق الغابة ويعملوا بمشقة في ظروف بدائية اضافة الى العبادة والصلاة والتأمل، فقد أدت كوارث الاحتلال المغولي وصراع الأمراء، وظروف الحياة الصعبة بشكل عام إلى تطور هذه العقلية ، والذي بدأ في صومعة، أصبح ديراً غنياً واسعاً تحيط به قرى فلاحية مزدهرة فإن النساك الحقيقيين أو الرهبان بذات الروح قد يجدون شعوراً عاماً خانقاً فيتركون الدير للاستقرار في صومعة في أعماق الغابة أو أقصى الشمال، وهكذا فإن كل دير خدم بوصفه بيت ايواء لمدة طويلة، وكان القائد الرائد لهذه الحركة القديس سرجيوس مؤسس دير الثالوث على بعد أربعين ميلاً شمالي موسكو، وكان تقواه وورعه الشخصي مصدر إلهام وتأثير للكثيرين حتى لمن لم يقابله قط ، علاوة على ذلك مارس رجال الدين دوراً رئيساً في جمع وتصنيف التواريخ الروسية^(٦٣). ولا بد من الاشارة اليه ذكر درجة التأثير والتأثر بين المغول والروس، فقد تأثر المغول بسكان المدن الأكثر تحضراً منهم، ولذلك شيد المغول بعض المدن مثل العاصمة سراي، كازان، واستراخان، ومع إقامة هذه المدن عرف المغول حياة الرفاهية، واقاموا الحفلات للشعراء الذين كانوا يمدحونهم ويتفاخرون بفروسيتهم وشهامتهم، وقد اختلف المؤرخون حول درجة تأثير المغول على الروس، فيرى البعض أن الروس قد تأثروا بالمغول وأخذوا بتقليد أساليبهم في التحدث والملبس واقتبسوا منهم الزي العسكري حيث يلاحظ ان الامراء الروس في القرن الخامس عشر يرتدون المعطف الطويل والقلنسوات العالية، مع وضع السيوف أو الخناجر في أحزمتهم ، ويرى بعض المؤرخين ان المغول كانوا يكافئون الامراء الشجعان الروس ويعلمون موافقتهم على المصاهرات فيما بينهم فقد تزوج الامير الروسي جليب Glebe، امير بيلوزرسك Bielozersk من إحدى الأميرات المغوليات عام ١٢٧٢م ، وعندما تزوج فيودور Feodor امير ريزان من عائلة القائد المغولي نوقاي خصص للامير قصرأ في مدينة سراي، وتزوج جورج دانيال George Daniels، امير نفغورود من ابنة الخان المغولي عام ١٣١٨م^(٦٤).

اهم النتائج التي توصل اليها الباحث^(٦٥):

اولاً : اوضحت الدراسة الاسباب الرئيسة التي جعلت روسيا دولة متخلفة سياسياً واقتصادياً وثقافياً هو فقدانها الاستقلال الوطني ووقوعها تحت الحكم المغولي طوال قرنين ونصف تقريباً، وكان هدف المغول الرئيس من دخول روسيا التوسع سياسياً والحصول على اكبر مساحة ممكنة من الأراضي واستغلالها سياسياً والاستفادة من مواردها الاقتصادية وفقاً لمصالحهم، فاستغلوا اضطراب الأوضاع السياسية في روسيا حيث كانت مجزئة إلى امارات متعددة وانتشار الفوضى والاضطرابات فيها حيث حاولت كل امانة ان تستولي على الامارات الاخرى

علاوة على ذلك اشتداد الصراع بين الامراء الروس والشعب من اجل السيطرة على مقاليد السلطة، وهذه بطبيعة الحال ادت إلى الحروب المتواصلة التي أضعفت البلاد من مختلف الجوانب سياسياً واقتصادياً ومالياً فانتهز المغول هذه الأوضاع واجتاحت جيوشهم الأراضي الروسية.

ثانياً : كشفت الدراسة السياسة المغولية التي امتازت بالقسوة والعنف تجاه السكان من خلال فرضهم الضرائب الثقيلة على الزراعة والتجارة بدون استثناء، اما بالنسبة لسياسة المغول تجاه الامراء الروس فقد جعلوا سلطته مقيدة وسمحوا لهم بممارسة سلطته القضائية في المحاكم بين رعاياه فقط، وحرّموا من بقية السلطات الأخرى، وكانوا يتلقون اوامرهم من خان المغول في روسيا، علاوة على ذلك جعل المغول الامراء الروس تابعين لهم من خلال استخدامهم سياسة فرق تسد عن طريق ضرب الامراء الروس بعضهم البعض الآخر وبث الفتنة والتفرقة فيما بينهم وتكليفهم بمهمة جمع الضرائب من السكان الروس، بينما خان المغول كان لديه سلطات واسعة العسكرية والقضائية والاقتصادية والمالية ويتلقى اوامره من الخان الأعظم الذي مقره في منغوليا.

ثالثاً: اثبت المغول فشل سياستهم في اناطة مهمة جمع الضرائب إلى الامراء الروس من سكان روسيا، فقد كانوا هؤلاء الامراء يعطون نسبة من هذه الضرائب للخان المغولي الذي مقره في سراي، والباقي يحتفظون به فأصبحوا أغنياء يمتلكون اموالاً كثيرة ساعدتهم في شراء الأراضي الروسية وضمها إلى موسكو لانجاز مشروع تجميع الأراضي الروسية الذي بدأ في عهد الامير ايفان الثالث.

رابعاً : كشفت الدراسة ان الحملات العسكرية التي قادها المغول التي اسفرت عنها حرق المدن الروسية، ونهبت الكاتدرائيات، والاديرة، والكنائس، ودمرت الاراضي الزراعية، وتوقفت العديد من الصناعات، تفوقهم وجدارتهم على الرغم من عدم توفر الخرائط لديهم، ويعود ذلك لتفوقهم العددي في كل المعارك التي خاضوها ضد الروس، اضيف الى ذلك كانت القوات المغولية تحت قيادة موحدة ومسلحة عسكرياً، اما القوات الروسية فان الامراء الروس ورجالهم هم الذين كانوا مسلحين فقط، اما فيما يتعلق بالغالبية العظمى من الروس فقد كانوا غير مسلحين الامر الذي ادى إلى تعرضهم بسهولة للقتل أو الأسر.

خامساً : اوضحت الدراسة عدم وجود القوة الموحدة للدولة الروسية، حيث كانت قوى الامارات المنفردة المفككة تواجه المغول وتعمل كل منها على حدة، الامر الذي اتاح الفرصة للقوات المغولية السيطرة على الامارات الروسية في القرن الثالث عشر الميلادي.

سادساً : اثبتت الدراسة ان المعارك التي خاضها المغول ضد الروس لم تكن لها اهداف رئيسية ذات معنى حقيقي مؤثراً وفعالاً سعوا إلى تحقيقها على سبيل المثال، فلم يكن الهدف من هذه المعارك نشر عقيدة دينية، فعقيدتهم كانت مجموعة من مختلف الاديان، ولم تكن هناك مبادرة من أي قائد مغولي لنشر هذه العقيدة في البلاد التي تم افتتاحها، إنما كان هدف المغول فقط هو الابادة والتشريد، وسبي الاطفال والنساء، من اجل تثبيت سلطاتهم على الأرض التي يعيشون عليها وجمع المال، وتبعاً لذلك لم يكتب لهذه المعارك الاستمرار.

سادساً : بينت الدراسة ان قوة المغول في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بدأت تضعف تدريجياً ويعود ذلك اشتداد الصراع والتنافس بين الخانات المغولية من اجل استلام مقاليد السلطة، الامر الذي ادى إلى استقلالهم بولاية الاقاليم التي تمثلت في ثلاثة مراكز سراي وقازان والقرم، وبذلك أصبحت دولة خان الاورطة الذهبية مجزئة سياسياً، ومهد ذلك إلى ضعفهم وتفرق كلمتهم، وعندما اكتشف الامير الروسي ايفان الثالث تحلل وتفكك دولة مغول القبيلة الذهبية امتنع عن دفع الجزية لهم، وقد تبين لنا ان الجزية كانت اخر مظهر من مظاهر النفوذ المغولي في روسيا، فجهز جيشاً قوياً واستطاع ان يحقق نجاحاً عسكرياً على المغول عام ١٤٨٠م ساعدته طبيعة روسيا الجغرافية المتمثلة بانتشار الغابات والمستنقعات والبحيرات بحيث يصعب على الفرسان المغول اجتيازها، علاوة على ذلك بعد المسافات التي كانت بين الأراضي التي وصلت اليها حوافر خيولهم وبين مقرهم في سراي على نهر الفولغا الى جانب صعوبة نقل الامدادات العسكرية اليهم، وبذلك تم تحرير روسيا من السيطرة المغولية.

التوصيات

اولاً : تشكل الوحدة السياسية للدولة اساس قوة البلاد واستقرار اوضاعها الداخلية وتطورها، فيجب على أية دولة من دول العالم ان تحرص على تحقيق هذه الوحدة لكي تقف قوة موحدة تتحدى أي قوى اجنبية تطمع فيها ولا تسمح لمنح الفرصة للاعداء الدخول اليها.

ثانياً : الاهتمام بالجيش الروسي وتنظيمه وتدريبه وتسليحه تسليحاً حديثاً لانه يدعم الامراء ويعزز سلطاتهم، علاوة على ذلك لانه يشكل القوة الضاربة للاعداء.

ثالثاً : اختيار القادة العسكريين الذين يتمتعون بكفاءة ادارية وعسكرية الذين لديهم القدرة في اعداد خطط مسبقة مدروسة للحرب وتنسيق للاعمال وزيادة روح التعاون والارتباط بين جميع طبقات المجتمع الروسي، لان العمل المشترك بينهم يؤدي إلى النجاح السياسي.

رابعاً : تضافر الجهود في المدن الروسية جميعها لتعمل كوحدة لها قيادة موحدة، وخطة واحدة، التي بدورها تعمل على زيادة قوتهم العسكرية، وزيادة اعدادهم، ومواردهم الاقتصادية، وبالتالي تؤدي الى ضعف وبث الرعب بين صفوف الاعداء.

الهوامش

- (١) عبد الرحمن , محمود : تاريخ القوقاز نسور الشيشان في مواجهة الدب الروسي , (منشورات دار النفائس , بيروت , ١٩٩٩) , ص ٤٣.
- (٢) ياروسلاف (١٠١٩-١٠٥٤ م) : امير كييف, اصدر مجموعة من القوانين العامة التي ساعدت على تنظيم نظام المحاكم وجمع الضرائب, وتدعم حق الاقطاعيين في الأرض والفلاحين. See:Florinsky, Michael , Russia A History and An Interpretation , (NewYork , ١٩٥٥) , pp.٢٣-٢٤.
- (٣) فلاديمير مونوماخ (١٠٥٣-١١٢٥ م) : قائد عسكري امتاز بكفاءة ادارية وعسكرية, استدعوه الروس الى كييف ليكون أميراً عليها, وقد توج اميراً لكييف عام ١١١٣م. للمزيد من التفاصيل ينظر : بيرخين , شميدت , تارنوفسكي : موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي, (دار التقدم, موسكو, ١٩٨٦) , ص ٢٠؛
- Clarkson, Jesse, A History of Russia from the Ninth Century, (London, ١٩٦١), p. ٩٧.
- (٤) عبد الرحمن : المصدر السابق , ص ٤٣.
- (٥) ترويتسكي, كارتسوف, الكسيف: موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي, (دار التقدم, موسكو, د.ت), ص ١٣.
- (٦) المغول : هم اقوام بدوية استوطنوا في اواسط اسيا , واندفعوا على شكل موجات غازية, احتلوا اجزاء من الصين ثم تحولوا بعد ذلك وفتحوا التركستان الغربية وفارس وأرمينيا وتوغلوا في الهند حتى لاهور , واحلوا التخريب والدمار فيها, ثم اندفعوا بجيوشهم عبر اسيا باتجاه روسيا عام ١٢٣٥ ودمروا معظم المدن الروسية. ينظر : ويلز, ه. ج. : موجز تاريخ العالم, ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد, (مطبعة السعادة, القاهرة , ١٩٥٨) , ص ٢٣٧؛ الأمين , حسن : المغول بين الوثنية والنصرانية والإسلام , (دار التعارف للمطبوعات , بيروت , ١٩٩٣) , ص ٨٩؛
- Spuler , Bertold , History of the Mongols Based on Eastern and Western Accounts of the Thirteenth and Fourteenth Centuries , Translated from the German by Helga and Stuart Drammond , (London , ١٩٦٨) , pp. ٦-١٠. (٧) باتو (١٢٢٧-١٢٥٦م) : قائد الجيش المغولي انخرط في العمل المسلح تحت لواء دولة المغول الموحدة , اتسمت سياسته بالشدة والعنف واجرى مذابح شنيعة في روسيا. للمزيد من التفاصيل ينظر : بخيت, رجب محمود ابراهيم: تاريخ المغول وسقوط بغداد, (منشورات مكتبة جزيرة الورد, القاهرة, ٢٠١٠م) , ص ٣٨٣؛
- Mirsky, D.S., Russia A Social Hisstory , (London , ١٩٣١), p. ٩٤.
- (٨) سنيوبوس, شارل: تاريخ التمدن الحديث, ترجمة: الكاتب المحبوب, (مطبعة الهلال, القاهرة , ١٩٠٩) , ص ٦.
- (٩) ترويتسكي : المصدر السابق, ص ١٣؛ العسلي , بسام : بطرس الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥) , (منشورات المؤسسة العربية , بيروت, ١٩٨٠) , ص ٢١.
- (١٠) ترويتسكي: المصدر السابق , ص ١٤؛ العسلي : المصدر السابق , ص ٢١.
- (١١) الكاتدرائية : مراكز ثقافية أقيمت في وسط مدن مهمة تحيط بها مظاهر المدينة والعمران لما لها من مكتبات ومدارس وسجلات وموظفين يساعدون الاسقف في الاشراف على نواحي النشاط التعليمي. للمزيد من التفاصيل ينظر : الخطيب , محمد : حضارة اوربا في العصور الوسطى , (منشورات علاء الدين , دمشق , ٢٠٠٩) , ص ١٨-١٩.
- (١٢) يبيفانوف, فيدوسوف: تاريخ الاتحاد السوفيتي, ترجمة : خيرى الضامن ونيقولا الطويل, (دار التقدم , موسكو, د.ت) ؛ ص ٧٧؛ العسلي : المصدر السابق , ص ٢٢؛ بيرخين : المصدر السابق , ص ٢٦-٢٧؛
- Kuskov, Vladimir , A History of old Russian Literature , Translated from the Russian by Ronald Vroon , (Moscow , ١٩٧٧), p. ١٦٣.
- (١٣) عمران , محمود سعيد : تاريخ أوربا في العصور الوسطى , (منشورات دار النهضة العربية , بيروت , ٢٠٠٦) , ص ٣٨١؛ ويلز : المصدر السابق ص ٢٣٧؛ ترويتسكي : المصدر السابق , ص ١٤.
- (١٤) ترويتسكي: المصدر السابق , ص ١٦-١٧.
- (١٥) بيرخين: المصدر السابق, ص ٢٩.
- (١٦) الاورطة الذهبية : كلمة مشتقة من اللفظة التركية " اوردو Orda " ومعناها المخيم , اما وصفها بالذهبية

فيرجع الى الخيمة ذات القبة التي كانت موشاة بالذهب. عبد الرحمن : المصدر السابق , ص ٣٥؛

-Ostrogorsky,George, History of The Byzantine State, Translated by Joan Hussey, Wikipedia,The (Oxford University press , ١٩٦٨),p.٤٩٤; Mirsky,op.cit.,p.٩٤; free,Encyclopedia.mht

(١٧) سراي : مدينة تقع في شمال غرب بحر قزوين تم بناؤها في عهد بركة خان بن جوجي بن جنكيزخان في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي, وقد وصفتها الروايات العربية بأنها مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ومساجد, وفيها طوائف مختلفة من الناس من روس ومغول وروم وشرقس, كل طائفة تسكن على حدة , ولما انتشر الإسلام في تلك الجهات صارت المدينة مقصد العلماء والأدباء, أمثال قطب الدين الرازي وسعد الدين التفتازاني وغيرهما. للمزيد من التفاصيل ينظر: بخيت : المصدر السابق , ص ٣٩٠؛ الامين : المصدر السابق , ص ٢٠٣؛

- Mirsky,op.cit.,p.٩٤.

(١٨) العطوي , عبد الرحيم : الاستشراق الروسي مدخل إلى تاريخ الدراسات العربية والاسلامية في روسيا , (منشورات المركز الثقافي العربي, بيروت , ٢٠٠٢) , ص ٢٦؛ الخولي , امين : صلات بين النيل والفرات في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي, في كتاب اعمال المؤتمر العالمي الخامس والعشرين للمستشرقين , ج ٢ , (دار النشر الشرقية , موسكو , ١٩٦٣) , ص ٥-٨ ؛ بخيت : المصدر السابق , ص ٣٩٠.

(١٩) فرنادسكي, جورج : تاريخ روسيا, ترجمة: عبد الله سالم الزليتنى, (المكتب الوطني للبحث والتطوير, طرابلس, ٢٠٠٧) , ص ٨٩-٩٠.

(٢٠) المصدر نفسه : ص ٨٠-٨١.

(٢١) المصدر نفسه : ص ٨١.

(٢٢) ترويتسكي : المصدر السابق , ص ١٤؛ فرنادسكي: المصدر السابق , ص ٩٠.

(٢٣) عمران: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى , ص ٣٨٧.

(٢٤) غراهام , ستيفن : ايفان الرهيب اول القيصرية , ترجمة : يوسف شلب الشام , (منشورات وزارة الثقافة السورية, دمشق, ١٩٩٦) , ص ٧؛ بيبانوف : المصدر السابق , ص ٧٩.

(٢٥) فرنادسكي: المصدر السابق , ص ٨٢.

(٢٦) ايفان الاول (١٣٢٥-١٣٤١) : امير موسكو الملقب بـ(كاليتا) Kalita تعني باللغة الروسية كيس نقود " Money Bags", اتصف بكفاءة ادارية وعسكرية, استطاع بدهائه ان يكسب المغول إلى جانبه, ولقب بالامير المعظم لموسكو.

See : Dukes, Paul A History of Russia Medieval, Modern, Contemporary ,(London, ١٩٧٤) , p.٣٠; Daniels , Robert V., Russia, (New Jersey, ١٩٦٤),p.٢٩.

(٢٧) ترويتسكي: المصدر السابق , ص ١٧.

(٢٨) عمران , محمود سعيد : المغول وأوروبا , (منشورات دار المعرفة الجامعية , الاسكندرية , ١٩٩٧) , ص ١٨٧.

(٢٩) بيرخين: المصدر السابق , ص ٣٥.

(٣٠) ديمتري ايفانوفيتش دونسكوي (١٣٥٩-١٣٨٩): حفيد الامير الروسي ايفان الاول, وسمي بدونسكوي نسبة لنهر الدون الذي عسكر فيه الجيش الروسي في الجهة اليسرى منه لمحاربة المغول .

See : Vernadsky , George , A History of Russia , (Oxford University press , ١٩٥١) , p.٥٤.

(٣١) See : Alexandrov,Victor, The Kremlin Nerve – Centre of Russian History , (Paris, ١٩٦٠) , p.٥٥.

(٣٢) ماماي : قائد الجيش المغولي, امتاز سياسته بالقسوة والعنف, قام بمهاجمة الأراضي الروسية وحرقتها واجرى مذبحه بالسكان .

-Mirsky,op.cit.,p.٩٤;

(٣٣) ترويتسكي: المصدر السابق , ص ١٨.

(٣٤) ليتوانيا : امارة تقع على الساحل الجنوبي لبحر البلطيق بين نهر نيمان Neiman ونهر دفينيا Dvina الغربي, وفي النصف الاول من القرن الثالث عشر تشكلت الامارة الليتوانية الاقطاعية, وتوسعت على حساب

اراضي غربي روسيا والأراضي البيلورسية والاوكرانية التي أضعفتها غزوات المغول والتتر حتى وصلت حدودها إلى موسكو والبحر الأسود في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وشكلت مع بولندا اتحاداً اسمياً عام ١٣٨٤م الذي استمر أربعة قرون، ودخلت تحت السيطرة الروسية عام ١٧٩٥م. للمزيد من التفاصيل ينظر: موسوعة القارات الجغرافية التاريخية: أوربا، المجلد الرابع، (منشورات دار الراتب، بيروت، ٢٠٠٨)، ص ٩٠؛ بيبانوف : المصدر السابق، ص ٩٠-٩١.

(٣٥) وثيقة روسية مترجمة تذكر جميع التفاصيل عن مجزرة الخان المغولي ماماي في معركة كوليكوفو : نقلاً عن بيبانوف : المصدر السابق، ص ٨٩-٩١؛ فرنادسكي: المصدر السابق، ص ٨٣-٨٤؛

-Riasanovsky, Nicholas, A History of Russia , (New York , ١٩٦٣), p.٧٨؛ Florinsky, op.cit., p.٩٤؛ Clarkson, op.cit., p.١٠٠ .

(٣٦) هوستون، ديفيدسون: روسيا كما رأيتها، (لندن، (د. ت.))، ص ١٠؛ فشر، ه.أ. ل : تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ترجمة : محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، (دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٦٦)، ص ٤١٩؛ قاسمية، خيرية: روسيا القيصرية والمشرق العربي، مجلة دراسات تاريخية، (العددان التاسع والعاشر، تشرين الأول، ١٩٨٢)، ص ٤٣.

(٣٧) بيرخين : المصدر السابق، ٣٦؛ فرنادسكي : المصدر السابق، ص ٨٣-٨٤؛

- Florinsky, op.cit., p.٩٤.

(٣٨) تيمورلنك : (١٣٧٠-١٤٠٥) : قائد مغولي حكم منطقة امتدت من مدينة سمرقند وسط اسيا التي اتخذها عاصمة له في القرن الرابع عشر الميلادي الى الحدود الجبلية لهندستان، وامتاز بشجاعة واضحة ونشاط جم ومقدرة فذة على القيادة بالإضافة الى تمتعه بكفاءة عسكرية كبيرة، وقد أسس تيمورلنك جيشاً قوياً، وكان دقيقاً في حساباته وخطته العسكرية الخاصة بالمعارك التي حققت له الانتصارات الدائمة. للمزيد من التفاصيل ينظر: كينروس، جون باتريك: القرون العثمانية قيام وسقوط الإمبراطورية التركية، ترجمة : ناهد إبراهيم دسوقي، (دار المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٣)، ص ٧٩-٨٠؛

- Spuler, op.cit., p.٨.

(٣٩) بخيت : المصدر السابق، ص ٤٠٥؛ فرنادسكي : المصدر السابق، ص ٨٤-٨٥؛

-Auty, Robert , An Introduction To Russian History , (Cambridge University Press , ١٩٦٨), p. ٨٧؛ Beatrice, Forbes, Manz, Mongol History rewritten and relived, (Tufts University Medford Mass , ٢٠٠٠), p. ١٤، Jouranli: Revue des mondes musulmans by www.ivsl.org ;Florinsky , op.cit., p.٩٤.

(٤٠) فشر : المصدر السابق، ص ٤١٧؛ بيبانوف : المصدر السابق، ص ٩٢.

(٤١) فرنادسكي : المصدر السابق، ص ٨٥-٨٦؛

-Mirsky, op.cit., p.٦٩؛ Vernadsky, op.cit., p.٥٤؛ Florinsky. , op.cit., p.٩٥.

(٤٢) فرنادسكي : المصدر السابق، ص ٨٦-٨٧؛

- Auty, op.cit., p. ٨٩-٩٠؛ Florinsky, op.cit., pp. ٩٧-٩٨.

(٤٣) فرنادسكي : المصدر السابق، ص ٨٧؛

- Florinsky, op.cit., pp. ٩٧-١٠٠؛ Auty, op.cit., p. ٨٩.

(٤٤) Auty, op.cit., pp. ٨٩-٩٠.

(٤٥) فرنادسكي : المصدر السابق، ص ٨٨.

(٤٦) ايفان الثالث (١٤٦٢-١٥٠٥) : امير موسكو الاعظم، اخضع الاراضي التي يقطنها الروس لسلطته وصار حاكماً لعموم روسيا، واهتم بمدينة موسكو وجعلها تتمتع بمركز ديني وسياسي هام واتخذها عاصمة للدولة الروسية في عهده.

See: Encyclopaedia Britannica , anew survey of universal knowledge , Vol .٦ , (London, ١٩٦٦), p.١٥٧.

(٤٧) عمران : المغول وأوربا، ص ١٩٠-١٩١.

(٤٨) بروي، إدوار : موسوعة تاريخ الحضارات العام، ترجمة : يوسف اسعد داغر وفريد داغر، ج ٣، (منشورات عويدات، ط ٢، بيروت، ١٩٨٦)، ص ٥٩٤؛ فرنادسكي : المصدر السابق، ص ٩٨؛ عمران: المغول وأوربا، ص ١٩١؛ العسلي : المصدر السابق، ص ٢٥؛

-Kirchner, Walther, A History of Russia , (New York, ١٨٧٤), pp. ٣٦-٣٧؛

Mirsky, op.cit., p.١٢٤.

- (٤٩) المستر أدر : تاريخ أوربا الحديثة واثار حضارتها، (مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٢٠)، ص٢٢٩؛ عبد الرحمن : المصدر السابق، ص٤٥-٤٦؛
- Parmele,Mary, Platt, Ashort History of Russia,(London,٢٠٠٥),pp.٣١-٣٣, By www.ivsl.org ; Stone ,David, A Military History of Russia from Ivan the Terrible to the War Chechnya , (New York ,١٩٦٨),p.٦, By www.ivsl.org; Littlefield, Henry, History of Europe ١٥٠٠-١٨٤٨ (New York ,١٨٧٤), p.٧; Alexandrov, op.cit.,p.٦٦.
- (٥٠) نقلاً عن الكسييف وكارتسوف: تاريخ الاتحاد السوفيتي، (دار التقدم، موسكو، د.ت)، ص٣١؛ ترويتسكي: المصدر السابق، ص٢٠.
- (٥١) اليوسف، عبد القادر احمد: العصور الوسطى الأوربية، ٤٧٦-١٥٠٠، (دار الكتب للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٧) ص٣٢٦؛ جريدة العالم بين يديك : (العدد ٢٩، ج ٣، منشورات دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨) ص١٥٨-١٥٩؛ بيبانوف : المصدر السابق، ص١٠٤-١٠٥؛ فرنادسكي: المصدر السابق، ص١٠٠-١٠١؛
- Littlefield,op.cit., p.٧; Vernadsky, op.cit.,p.٦١؛
- (٥٢) نقلاً عن بيبانوف : المصدر السابق، ص١٠٤-١٠٥.
- (٥٣) البويار: هم اعلى فئة من الاقطاعيين في الدولة الروسية ما بين القرن العاشر والقرن السابع عشر، وهم مالكو الأراضي الكبار وتأتي منزلتهم بعد الامير الكبير مباشرة وكانت تتركز في ايديهم ادارة الدولة.
- See : Perrie, Maureen, The Cambridge History of Russia from Early Rus to ١٦٨٩, (Cambridge University Press , ٢٠٠٦), p. ٤٥٨; Vernadsky, op.cit., p. ٤١.
- (٥٤) فرنادسكي : المصدر السابق، ص٨٩.
- (٥٥) بيرخين : المصدر السابق، ص٢٨؛ فرنادسكي : المصدر السابق، ص٨٨-٨٩.
- (٥٦) بيبانوف : المصدر السابق، ص٩٧.
- (٥٧) فشر : المصدر السابق، ص٤١٩؛ بيبانوف : المصدر السابق، ص١٠٧-١٠٨.
- (٥٨) بيبانوف : المصدر السابق، ص١٠٨.
- (٥٩) فرنادسكي : المصدر السابق، ص٩٣؛ بيبانوف : المصدر السابق، ص١١٠-١١١.
- (٥٨) فرنادسكي : المصدر السابق، ص٩٣.
- (٥٩) بيرخين : المصدر السابق، ص٣٦؛ بيبانوف : المصدر السابق، ص١١٠.
- (٦٠) بيرخين : المصدر السابق، ص٣٦؛ فرنادسكي : المصدر السابق، ص٩٢-٩٣.
- (٦١) بيبانوف : المصدر السابق، ص١٠٨.
- (٦٢) المطران : اعلى لقب لاساقفة الارثوذكس في الكنيسة.
- See: Alexandrov, op.cit.,pp.٦٣-٦٤ ; Mirsky,op.cit.,pp.١١٣-١١٦.
- (٦٣) فرنادسكي : المصدر السابق، ص٩٣.
- (٦٤) عمران : تاريخ اوربا في العصور الوسطى، ص٣٨٨-٣٨٩؛ عبد الرحمن : المصدر السابق، ص٤٤؛ عمران : المغول واوربا، ص١٨٧-١٨٨.
- (٦٥) ترويتسكي : المصدر السابق، ص١٦-٢٠؛ عمران : المغول وأوربا، ص١٩٠-١٩١؛ فرنادسكي : المصدر السابق، ص٨٧-٨٨؛ عبد الرحمن : المصدر السابق، ص٤٣-٤٥؛ بيرخين : المصدر السابق، ص٣٠؛ بيبانوف : المصدر السابق، ص١٠٤؛ بخيت : المصدر السابق، ص١٦٨-١٦٩، ٤٠٠-٤٠١؛
- Auty,op.cit., pp.٧٨-٩٨; Vernadsky,op.cit., pp.٤٦-٦٠; Alexandrov, op.cit., pp.٢٥-٧٢; Stone, , op.cit.,p.٦.

المصادر

اولاً : الكتب العربية والمعرية

- ❖ الأمين ، حسن: المغول بين الوثنية والنصرانية والإسلام ، (دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ١٩٩٣).
- ❖ بخيت، رجب ابراهيم محمود: تاريخ المغول وسقوط بغداد، (منشورات مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، ٢٠١٠م).
- ❖ بيرخين ، شميدت ، تارنوفسكي : موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي، (دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦).
- ❖ ترويتسكي، كارتسوف، الكسييف: موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي، (دار التقدم، موسكو، د.ت)، ص١٣.
- ❖ الخطيب، محمد : حضارة اوربا في العصور الوسطى ، (منشورات علاء الدين، دمشق ، ٢٠٠٩).

- ❖ الخولي , امين : صلات بين النيل والفولجا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي, في كتاب اعمال المؤتمر العالمي الخامس والعشرين للمستشرقين, ج٢, (دار النشر الشرقية, موسكو, ١٩٦٣).
 - ❖ سنيوبوس, شارل: تاريخ التمدن الحديث, ترجمة: الكاتب المحبوب, (مطبعة الهلال, القاهرة, ١٩٠٩) .
 - ❖ عبد الرحمن , محمود : تاريخ القوقاز نسور الشيشان في مواجهة الدب الروسي, (منشورات دار النفائس , بيروت , ١٩٩٩).
 - ❖ العطوي , عبد الرحيم : الاستشراق الروسي مدخل إلى تاريخ الدراسات العربية والاسلامية في روسيا , (منشورات المركز الثقافي العربي, بيروت, ٢٠٠٢).
 - ❖ العسلي , بسام : بطرس الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥) , (منشورات المؤسسة العربية , بيروت, ١٩٨٠).
 - ❖ عمران , محمود سعيد : تاريخ أوربا في العصور الوسطى , (منشورات دار النهضة العربية , بيروت , ٢٠٠٦).
 - ❖ _____ , المغول وأوربا, (منشورات دار المعرفة الجامعية, الاسكندرية , ١٩٩٧).
 - ❖ غراهام , ستيفن : ايفان الرهيب اول القيصرية , ترجمة : يوسف شلب الشام , (منشورات وزارة الثقافة السورية, دمشق, ١٩٩٦) .
 - ❖ فرنادسكي, جورج : تاريخ روسيا, ترجمة : عبد الله سالم الزليتنى, (المكتب الوطني للبحث والتطوير, طرابلس, ٢٠٠٧).
 - ❖ فشر, هـ.أ. ل : تاريخ أوربا في العصور الوسطى, ترجمة : محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني, (دار المعارف , القاهرة , ط٤ , ١٩٦٦).
 - ❖ الكسييف وكارتسوف: تاريخ الاتحاد السوفيتي, (دار التقدم, موسكو, د.ت).
 - ❖ كينروس, جون باتريك: القرون العثمانية قيام وسقوط الإمبراطورية التركية, ترجمة : ناهد إبراهيم دسوقي , (دار المعارف, الإسكندرية, ٢٠٠٣).
 - ❖ المستر أدر : تاريخ أوربا الحديثة واثار حضارتها, (مطبعة المعارف, القاهرة, ١٩٢٠).
 - ❖ هوستون, ديفيدسون: روسيا كما رأيتها , (لندن , (د.ت)).
 - ❖ ويلز, هـ.ج: موجز تاريخ العالم, ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد, (مطبعة السعادة, القاهرة , ١٩٥٨).
 - ❖ اليوسف, عبد القادر احمد: العصور الوسطى الأوربية, ٤٧٦ - ١٥٠٠, (دار الكتب للطباعة والنشر, بيروت, ١٩٦٧).
- ثانياً : الكتب باللغة الانكليزية

- ❖ Alexandrov, Victor, The Kremlin Nerve – Centre of Russian History , (Paris, ١٩٦٠).
- ❖ Auty, Robert , An Introduction To Russian History , (Cambridge University Press , ١٩٦٨) .
- ❖ Clarkson, Jesse, A History of Russia from the Ninth Century, (London, ١٩٦١) .
- ❖ Daniels , Robert V., Russia, (New Jersey, ١٩٦٤).
- ❖ Dukes, Paul A History of Russia Medieval, Modern, Contemporary , (London, ١٩٧٤).
- ❖ Florinsky , Michael , Russia A History and An Interpretation, (New York , ١٩٥٥).
- ❖ Kirchner, Walther, A History of Russia , (New York, ١٨٧٤).
- ❖ Kuskov, Vladimir , A History of old Russian Literature , Translated from the Russian by Ronald Vroon , (Moscow , ١٩٧٧).
- ❖ Littlefield, Henry, History of Europe ١٥٠٠-١٨٤٨ (New York , ١٨٧٤).
- ❖ Mirsky, D.S., Russia A Social Hisstory , (London , ١٩٣١).
- ❖ Ostrogorsky, George, History of The Byzantine State, Translated by Joan Hussey, (Oxford University press , ١٩٦٨).
- ❖ Parmele, Mary, Platt, Ashort History of Russia, (London, ٢٠٠٥).
- ❖ Perrie, Maureen, The Cambridge History of Russia from Early Rus to ١٦٨٩, (Cambridge University Press , ٢٠٠٦).

- ❖ Spuler , Bertold , History of the Mongols Based on Eastern and Western Accounts of the Thirteenth and Fourteenth Centuries , Translated from the German by Helga and Stuart Drammond , (London , ١٩٦٨).
- ❖ Stone ,David, A Military History of Russia from Ivan the Terrible to the War Chechnya , (New York , ١٩٦٨).
- ❖ Riasanovsky, Nicholas, A History of Russia , (New York, ١٩٦٣).
- ❖ Vernadsky , George , A History of Russia , (Oxford University press , ١٩٥١).

ثالثاً : الموسوعات باللغة العربية

- ❖ موسوعة القارات الجغرافية التاريخية: اوروبا, المجلد الرابع, (منشورات دار الراتب, بيروت, ٢٠٠٨).
 - ❖ بروي, , إدوار : موسوعة تاريخ الحضارات العام , ترجمة : يوسف اسعد داغر وفريد داغر , ج ٣, (منشورات عويدات , ط ٢ , بيروت , ١٩٨٦).
- رابعاً : الموسوعات باللغة الأجنبية :

- ❖ Encyclopaedia Britannica, anew survey of universal knowledge, Vol .٦, (London, ١٩٦٦).
- ❖ Wikipedia,The free Encyclopedia.mht.

خامساً : الدوريات:

الجرائد

- ❖ جريدة العالم بين يديك: العدد ٢٩, ج ٣, منشورات دار الجيل, بيروت, ١٩٩٨ , ص ١٥٨-١٥٩.
- المجلات باللغة العربية
- ❖ قاسمية, خيرية: روسية القيصرية والمشرق العربي, مجلة دراسات تاريخية, (العددان التاسع والعاشر, تشرين الأول , ١٩٨٢).
- المجلات باللغة الانكليزية من المكتبة الافتراضية
- ❖ Beatrice,Forbes,Manz,Mongol History rewritten and relived, (Tufls University Medford Mass, ٢٠٠٠), Jouranli: Revue des mondes musulmans by www.ivsl .org